اثر لدمعة

شيء

من فواجع لبنان ومظالم جمال باشا في سوريا

سنة

١٩١٤ — ١٩١٨

ولا بد من يوم فيه يلقب انسان هذا العصر بالذئب الكاسر الخاطف

بقلم

سليم صليبا

طبع في مطبعة الفيحاء بشارع مدحت باشا بدمشق في ٢٦ حزيران سنة ٩٢٠

اثر لدمعة

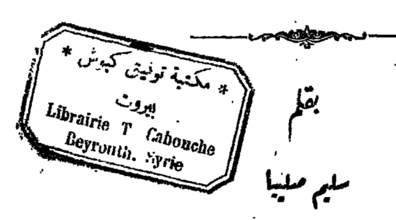
شيء

من فواجع لبنان ومظالم جمال باشا في سوريا

سنة

١٩١٤ — ١٩١٨

ولا بد من يوم فيه يلقب انسان هذا العصر بالذئب الكاسر الخاطف



بقلم

سليم صليبا

طبع في مطبعة الفيحاء بشارع مدحت باشا بدمشق في ٢٦ حزيران سنة ٩٢٠

اهداء الكتاب

الى

حضرة النسيب الوجيه عساف جرجس سعد صليبا المحترم

لك لا لغناك ولك لا لمقامك اهدي كتابي هذا لان لك النفس الطيبة والغيرة الحقة والكلمة الصحيحة والمبدأ الخالص فتكرم بقبوله

(سليم صليبا)



الى القارئ

اذا كان يهمك التأمل في اظلال لبنان ودوارس قبوره غير بعيدة العهد مهما كانت غايتك لا تقف مطلاً من على رؤوس الجبال والتلال ولا ترفع الى عينيك نظارة تريك الاشياء عن بعد ولا تكتف بالنظرة الاجمالية ففي زيادة التقرب من الاشياء زيادة جلاء للغاية المتوخاة من البحث والتأمل

مر على القدم بين التلال والجبال صعوداً وهبوطاً فان هنالك كثيراً (لا تراه عن بعد) مما فيه زيادة ايضاح لدروسك وتاملاتك

تعال وانظر بالعين المجردة وعن قرب قبور الشبان والاولاد صرعى الجوع قتلى الظلم ضحية جمال باشا وشاهد الرواية الممثلة مظالم الانسان وابك شهداء لم تبكهم عين

لا تكلف نفسك الى المقابر العمومية فان في كل ناحية و بقعة قبوراً وربما واطلالا تريك مافعلت يد الاثم بلبنان وتحدثك برزء اصاب لبنان فرسم عليه آية التعاسة والويل بشكل تعجز عن تمثيله ريشة المصور و يراع الكاتب

بعد كثير التأمل وطويل النظر ، بعد مشاهدة رواية الطبيعية غير الناطقة عد الى مناجاة الناطق من عاني الشدة وقاسى الاهوال مع هوءلاء القوم الدوارس ، من جاز جهنم الويل وعاد عن حدود الموت مجتذباً بقوة لا يدركها

انا الذي جزت وادي الضيق وعبرت بحر المصاعب والاهوال خارجاً من مأزق الضيقات وناجياً من شر الابالسة اشرار البشر انفض غبار الموت وأقف محيياً رسل السلام احباب الانسانية المقدسة وارسم للعالم على قدر الامكان صورة حلم رأيته بل مشهداً مؤلما شاهدته عيانا وحياة صعاب جزتها فعلا وأياما سوداً مرت علي

١

رأيت...

رأيت اللبنانيين ابناء الغربة وقد نشبت الحرب في اوربا وكان التجمع في تركيا يرجعون الى حيث ولدوا ، الى المواضع التي هم من هوائها ومائها والتي استقبلهم العالم فيها حيث نظروا النور اولا

وفي هذا الحين رأيت الشبان ابناء الولايات المجاورة لبنان يفرون الى لبنان : حيث رتع اللبنانيون في لذيذ عيشهم ونعيم حريتهم ورأيتهم بعد اشهر يخرجون من البلاد مرغمين وفي اثرهم اللبنانيون منظرهم مرعب وحالهم مبكية

تموز عام ١٩١٤ اول الحركة

في البيت مؤونة الشتاء وفي الجيب شيء من الدراهم ولا يطالب بعسكرية فالحياة رغد

أمن وراحة ولهو في انتظار السلم القريب

من خرج من لبنان قبلاً ولم يرد ان يذكر انه لبناني ، ومن لم يكن يريد الا انتسابا الى لبنان مخافة ان يقال له «ذب الجبل» من انكر مخرجه وارض مولده اللبنانية عدل اليوم خطته وقام يبرهن و يثبت انه لبناني وصار مع غيره يشتهي من صميم القلب ان يكون لبنانياً وان تثبت لبنانيته ، فصارت كلمة « لبناني » نحيفة لطيفة عذبة رقيقة المسمع واللفظ

الشمس والقمر على لبنان ازهى وابهى منهما على غيره

بيروت والشام تحسدان لبنان

السعادة في لبنان

ليت الجميع لبنانيون ! ليت السعادة تدوم !

الشبان يلعبون كالاولاد والشابات يسرحن و يمرحن

وكان الاسراف والافراح والحرية لكن قل الزواج ولم تنجح الازياء

ولم يبق ءارأ السفر مشيا ولا متعبا مميتا كما كان يظن الناس قبلاً

الشيخ والشاب والولد لهج بذكر الحرب فوق العادة

اخبار القتل تسر القلوب رجاء انها تقرب يوم حلول السعادة المنتظرة التي هي الصلح المرضي

الناس متحيزون الى جهة الائتلاف و يأبون بتاتاً تصديق الاخبار غير القائلة بانتصاره

و يل للعاكس !

كم جدال اشتد وكم خصومـة وضجة قامت بين الباحثين في « من يكون المنتصر »

و كثرت التكهنات والابحاث في مسألة دخول تركيا في الحرب و بقائها على الحياد

والاغرب ان في ايام هذه الحرب المشؤومة تعددت الاخبار والاشاعات والاكاذيب والاقوال والاجتماعات والابحاث والاراء والحجج والبراهين ومع ذلك لم توضح حقيقة ما ولم يكن خير البلاد اواستعداد لطاري

لبنان ، شيخ البلاد العاقل كان في لهو وسبات يوم كان الترك الائمة دملة الانسانية المؤلمة يدبرون له الحيلة المفجعة

لم تكن في لبنان وحدانية تربط ولا جامعة تضم فكان كل رأسا وكان ذنبا وكان من ذلك بناء مجد لبنان متزعزعاً كائنا على رمل لا على مثل الجلامد القائم بها جبل لبنان

لا اقدر ان اقول ان الترك هم الذين وضعوا التفريق في لبنان عملا بقاعدتهم فرق تملك بل اقول ان التفريق وجد وضعياً في لبنان تزرعه وتمتني به ايد شريرة تعمش في الصفحة مع اللبنانيين

....

وكان من الحكومة التركية ايقاف البواسط الاجنبية وضبط الرسائل فيها فاطلعت على بعض مضمرات اهل البلاد واتخذتها حجة مسوغة الظلم والاضرار

وجاء تشرين الاول عام ١٩١٤ ودخلت تركيا في صف الدول المحاربة اقفل الدزدنيل ، سُد البحر ،وحوصرت البلاد

بتت العلائق الخارجية

وضعت اول حلقة من دائرة التضييق عَلَى لبنان وضبط الترك اوراق القناصل المعادية فوقعوا هنا ايضا عَلى كثير من الاوراق التي كان بها احتدام غيظهم وحنقهم عَلَى لبنان خصوصا والناطقين بالضاد عموما

ونشر في جميع قرى اللبنان ذلك الاعلان الاول الذي يسمي اللبنانيين عثمانيين صرفا و يدعوهم الى السكينة مخادعا واعداً بالخير والراحة

واهتزت قلوب اللبنانيين لهذا الاعلان الذي لم يفهموه او فهموه بغير ما يلزم ودليلي في ذلك سكونهم ازاء تلك الاحوال

اين رجال العلم لتفسر المكتوب وتوضع الغاية ؟ اين من يرى ما وراء الاكمة ليخبر القوم عما وراءها وما ينتظر لبنان من النائبات والايام السود

ان هذا الاعلان كان فاتحة سيئة ومحكاً صحيحاً لفهم ما عند اللبنانيين من الاستعداد للحدثان وصد الترك وكسر نيرهم والخروج عن طاعتهم

كان الترك يخافون لبنان المنيع المتحيز الى جهة الائتلاف والمتهم باخلاصه لفرنسا ظانين ان فيه استعداداً لاشغال بال الحكومة وقدح زناد ثورة يخشى تسر بها الى سائر البلاد العربيه فاحتكوا بلبنان ولم تظهر اشارة تخيف اودليل فاطأن بالهم نوعاً ما وفهموا ان الاربعة والخمسين عاماً التي مرت على لبنان مستقلاً ادارياً لم تأت باستعداد لشيء وان الخوف من لبنان لم يكن الا وهماً او اثراً عن ماض وان اللبنانيين يلتقطهم الفخ

فارسلت العساكر الشاهانية النظامية الى لبنان بحجة المحافظة عليه ولغاية التحفظ منه

وعد الترك دخول عساكرهم النظامية الى لبنان نصراً مبيناً وفاتحة انتصار مبرورة كانما انتصروا على عدوهم الانكليز او افتتحوا الترعة باب مصر وافريقيا

ما شاء الله ظفر السلطان بشعبه فيا لسعادة البلاد

اين المروءة اين شرف لبنان

هي الطبيعة طبيعة لبنان الحرة العزيزة كانما ساءها ان تدنس ارضه فشنت الغارة وارسلت الجيش الذي ارسل اولاً بطريق ظهر الحرف الى لبنان بزعازع واعصار وامطار وثلوج فتكت بالبعض وشردت الباقين

ولا اعلم ما هذا ? أعن كرامة نفس وانسانية في غير محلها ام عن احترام الضيف وان عدواً ام عن خوف اوجهل وعدم ادراك تسارع اللبنانيون لمساعدة المنكوبين فدفنوا الموتى واعتنوا بالاحياء وآووهم واطعموهم وادفؤوهم بكل همة وغيرة ولم يخطر ببالهم قط انهم سيخرجون من لبنانهم العزيز بتعاسة اعظم مسافين بسيف ظلم من احسنوا اليهم

ولم تشفع باللبنانيين هذه الحسنة وامثالها لان الترك كانوا على اعتقاد من ان لبنان ليس الصديق بل العدو الذي وجب ان يقهر

وحسب الناس لدخول الجيوش النظامية لبنان الف حساب وكثيراً ماطمروا الامتعة بالتراب او اخفوها في الابار وابعدوا المؤونة عن النظر تهريباً لها وحفظاً ليوم الحاجة لانهم كانوا يظنون ان ستقع لهم مع هـذه الجيوش مشاجرات وحوادث محاربات

وكان شمالي لبنان يعتمد عَلَى جنوبيه وجنوبيه يعتمد عَلَى شماليه والناس تقول هذا قوي مستعد لايستسلم للدولة العثمانية وذاك مستعد والدولة تتجنبه وجاءت الدولة فذل لها هذا وذاك خضوعاً وداست هي الجميع

ان تفريق الكلمة في لبنان ونفاق بعض المستظهرين فيه وفساد من وسوس للعدو طمعا بغاية ذاتية كان سبب القعود عَلَى الذل والماء الشافي لغليل من راموا ضرر البلاد من لم يسطر لهم التاريخ صحيفة بيضاء رجال الدماء اولاً وآخراً انسال جنكيز خان

وكان منظر الجند في لبنان مخيفاً مرعباً جداً وذلك اما لان الشعب اللبناني كان يتمثل فيهم التعاسة المقبلة من غير مايعلم فيرتجف ويهلع ويرتعد او لان ناشئة لبنان الجديدة التي لم تتعود الحروب ولم تعش في غير الرفاهة والنعم هالها مشهد الرجال الاشداء الوحشيين او لان اللبنانيين ادركوا من انفسهم سطوة الدولة الغضوب وحنقها وفهموا انهم لايقدرون ان يقفوا تجاهها فاختاروا السكينة لكنهم ندموا ولات ساعة مندم

كنت في هذا العهد ارغب واتمنى ان اصادف في لبنان نذيراً او مخبراً عن حالة لبنان المقبلة يسمع له الناس فيستعدون لمصادمة الطوارئ فلم اسمع

غير التكهنات غير المعقولة والكلام الذي لايجدي والانقياد لمن لايلزم الا واحداً اعرفه جيداً لم يكن يصدق وكان الناس يعدونه مكيراً وعديم الادراك

هذا الرجل (١) عصبي المزاج كان الافتكار بالحالة المقبلة يؤلمه جداً وكان اذ يفتكر ينفعل جداً حتى يتعسر عليه التعبير بالكلام فيستعين بالاشارات

هذا الرجل بعيد النظر صحيح الفكر لم يكن يصدق ، لم يكن في الناس من يفهم حقيقة افكاره او من يريد ان يفهمها ، و يصدقها ، لانها كانت فألاً سيئاً وصورة مستقبل اسود لم تكن الناس تتصوره ولا ترضى ان تسمع عنه

لم يقبل الشعب اللبناني الفكرة الصحيحة السليمة ليستعد لاتيه ولم يصدق الروايات الحقيقية ولم يرد اصلاً ان يسمع بمثل هذه النبوآت والاخبار عن الخراب والفواجع منتظرة البلاد

هذا الرجل انذر وتألم سلفا وخبر عن الغلاء المقبل والجوع والتشتيت والموت والخراب وعن ظهور الاوراق النقدية وسقوط قيمتها وعن كل ماانتاب البلاد من الويلات

وقفت واياه ذات يوم على سطح وكنا قبالة اكمة عليها خرابات قديمة يعرفها كلانا فدل بيده الواحدة الى تلك الاكمة ماسكا كتفي باليد الاخرى وقال بتقطع وارتجاف :

— سليم ؟ . . أنظر ،. . هكذا سيكون . . . . آخ . . . .

وكانت كلمة التوجع آخ محطاً لكلامه ومظهراً لتحرقه في جميع احاديثه

القاري الحكيم اترك الحكم في ماهية كلمات هذا الرجل المملوءة عقلا والمفعمة افكاراً صحيحة ونبوآت صادقة

(١) من اصدقاء الكتاب

٣

بدأت الحكومة العثمانية تفعل مشيئتها في لبنان فثبتت الادارة المرقبة الصارمة في عاليه وضبطت الاسلحة والذخيرة التي كانت في مستودع حكومة لبنان و بثت جندها في جميع الانحاء وابدت اشد المظاهر المرهبة المرعبة حتى ازهقت جنو بي لبنان المشهور وارجفت شماليه العزيز

ودعي الناس لمبايعة الحيوانات في عاليه وارغموا عَلَى ذلك

و يالله من ذلك الكومسيون الذي اختارته الحكومـة التركية لتثمين الحيوانات ودعته كومسيون مبايعة الحيوانات في عاليه

مختار الظالم المنتقم ليساعده عَلَى الظلم والانتقام كيف يكون ؟

والانكى ان هولا المختارين اللبنانيين بل الة الظلم الصحيحة نراهم اليوم ونسمعهم ينادون بالمفاداة من اجل لبنان و يقولون انهم يموتون من اجل لبنان غيرة عَلَى صالحه وراحة اهله فهل تصدق ذلك ايها القاري ؟ ايجوز ان يوثق بهذا الكلام و يقلد هؤلاء اليوم ادارة من ظلموا في الامس .

الدابة التي كانت تساوي في ذلك العهد خمسين ليرة ذهباً ثمنت بعشر او خمسة عشر ورقه والورقة بثلاث مجيديات فما دون واجبروا صاحبها ان يبعها

و كثير من اصحاب الدواب لم تحمل طبيعتهم مثل هذا ولم تطاوعهم الارادة ان يقبضوا العشر ورقات فكانوا يتركون الدابة والثمن و ينصرفون ، وكانت في هذا غاية الكومسيون الذي كان يسر بنجاحه في هـذه الاعمال من يوم الى يوم وتمنى لو ان الحالة تدوم

والذي لم يقدم دابته للمبايعة ضودرت بلا ثمن وندر وجود الدواب في لبنان فاضطر بالناس كباراً وصغاراً ذكورا واناثا ان يمثلوا دور الحيوانات في العمل وينقلوا

الانتقال ابعاداً شاسعة و يجروا الشاحنات كانهم البهم في خدمتها

وما اتعس ان تري الناس قطراً سائرة حاملة عَلَى الظهر اوالراس مثقلة بالاتعاب تئن تحت عبء الانتقال طالبة الموت الذي نكرهه

لبنان — الجزء الاعز الغالي (بهــذا تكلم احد القواد الترك) من اجزاء الدولة العثمانية اذلت الدوله العثمانية اهله وانزلتهم منزلة البهائم واماتهم جوعاً

...

الادارة العرفية في عالية

تهيب الناس الموقف وذل الراس الشامخ

اين العزة والاقدام ؟

خوف ورعدة عَلَى الجميع

ذابت القلوب خوفا ، سكر الناس من الجزع ، تضغضعت العقول فهــم يضربون عَلَى غير هدى

ظفرت العثمانية بالجبل ، استظهرت فيه مدة يدها الي الحكومة ، قامت وحطت وغيرت و بدلت عَلَى مشيئتها وقلبت المتصرفية ظهراً لبطن حتي صيرت لبنان بظاهره عثمانيا صرفا لاغش فيه وصارت اللغة التركية تدرس في مدارس لبنان وتسمع في دوائر حكومته

اخلص لبنان للدولة العثمانية واخلصت الدولة العثمانية للبنان بانها كانت تعمل عَلَى خرابه وكان هو يتمنى لها الانسحاق من صميم قلبه

استبد الترك بالجبل وسيروا رغبتهم فيه متظاهرين دائمًا انهـم يعملون لخير اهله

كثرت الاوامر المتنوعة والمطاليب المتعددة والمواعيد الخلابة

بالوعد بعدم التجنيد صدق الترك

لاعلم لماذا رضي الترك ان يصدقوا في هذه المرة وينجزوا هذا الوعد

وكانت اعلانات الحكومة واخبارها حسنة عَلَى الدوام تسر الناس ظاهرا وتضعف القلوب داخلا

وكانت الاشاعات المتضادة والاخبار المتناقضة فكانت حرب بين الاخبار والاخبار والاشاعات والاشاعات والناس في ضلال

ومن المضحكات المبكية ان الاوامر والاعلانات كثيرة العدد لم يكن ينفذ منها الا القليل المولم للانسانية الجارح للقلب البشري



٣

عبر الشتاء وحلت عقدت كانون ، فضت عبوسة الافق والقيث اوزاز خرب الافلاك فاخمدت الطبيعة نار بروقها واسكتت مدافع رعودها وكفت كرات صواعقها فسالمت الارض السماء ، او كانما الربيع الجميع الباسم بشير الخيرات ونجمة صبح المسرات جاء فالقى صلحا بين المواصف والعواصف والرياح والرياح وكف دموع السماء الباكية

جاء الربيع وهللت الارض مبشرة الانسان — غير المحققة امانيه بالصلح — بظهور الخيرات ونعيم الصيف

جمال الربيع - بهجة الطبيعة - كان

وكان القول هنيئا لمن يعيش الى ما بعد الحرب

وكان الوعد بالخيرات وبالصلح المنتظر الجميل وتجديد الحياة وبلوغ السعادة

وجاء الجراد

غيمة من جراد في سماء سوريا ولبنان

الشمس بدأ يتغير نورها والجو قطب عابس

الجراد في كل ناحية ومكان

بلطفك وخفتك ورقة اخلاقك ياضيف لبنان من دعاك

بدأت حرب البشر مع الجراد

تهليل ام عويل ؟ عيد ربيع ام يوم مهرجان ؟ عرس ام مأتم ام حرب ؟

حرب شديدة وجهاد مر

هوذا الانسان كلت قواه وظهر عجزه فهو يناذي السمرمر

الانسان القوي سيد الكائنات ينادي السمرمر ـ يستغيث بالطير الصغير السمرمر ، وكان السمرمر بطل هذه الحرب المنتظر او رسول النصر العلوي ، علق عليه الرجاء ونودي باسمه في كل مكان

وخابت الامال بالسمرمر كما خابت في انتظار الصلح

لم يرحم السمرمر مثلما ترحم الحكومة الآمرة بمكافحة الجراد تظاهراً بالسعي وراء النفع العام والعاملة جهدها لتعظيم المأساة العمومية

نزل الجراد في لبنان نزول الجيش في البلاد واكل من خبز الجميع بغير استثناء كانما شعاره ذلك المعروف ـ حريت ، مساوات ، عدالة

وكانت اضرار الجراد في لبنان اعظم منها في غيره واكثر تأثيرا

ولما خلت الارض من الخضرة قال الجراد في نفسه لاكن ضيفاً خفيفاً لطيفاً فاقلع من طريق لم تعلم كما اتى ، لكنه لم يشبع ولم يودع بجلبة وطنة ورنة كما استقبل ، اقلع الجراد وخلف الحسرات

اين خيرات الصيف ليفرح الزارع والحاصد وتخفف ويلات الحرب

كانما الطبيعة جمعاء غضبى على لبنان ، كانما للبنان ذنب عظيم تجاه الارض جمعاء ، كانما لبنان غليوم الثاني تألبت عليه الارض لتكسر شوكته وتذل قوته

وحلت الامراض

حصار وامراض وجراد وحكومة ظالمة

اوكانما لم يرض الطبيعة الا ان يضحي ابناء المردة ما يفوق الاثمان ليكون ذلك كفارة تغسل عنهم العار الملتصق بهم و يكون لهم الحق في المستقبل ان يجروا مجرى الامم الشريفة فبعثت بالحصار مضايقاً و بالجراد مقاسماً و بالامراض منازعاً و بجمال باشا طاغية سوريا مقتصاً

وجاء الخريف اوائل العام الثاني للحرب و بدأت رواية المأساة العظمى تتمثل ، بدأ الغلاء ووقع الحجز (اي منع ادخال الحبوب الى لبنان بدون اجازة رسمية)

في الخريف هذا نزلت الفاجعة ، فبدأ الخراب والتفريق ، في الخريف هذا نزل الويل ، في الخريف هذا بانت طلائع الجوع والامراض وعلامات الشر ، في الخريف هذا فتح باب جهنم ، في الخريف هذا شعر الناس حقيقة بحلول النازلة فاستصغروا كل مادة تجاه الحياة

والناس على املهم بالنهاية القريبة قل املهم بالحياة ، بيعت الحلى والمجوهرات باثمان بخسة جداً

الذهب والجواهر قلت قيمتها لكثرة المحتاجين وجهل النـاس و كتمان حالة المستقبل

الموقف حرج، موقف حياة وموت وارتفاع وهبوط والنـاس بحظوظها وضرب شاكوش الحزن والخوف القلوب فلم تعد تستقر الافكار

حتى الاولاد الذين لم يتعودوا الافتكار والاهتمام بمسألة الحيـاة بدأوا يشعرون بوجوب الاهتمام و يفعلون

كثر المستولون و بدأ يقل المحسنون

بدأ الشحوب والاصفرار على وجوه الناس

اما عن الخبز وانواعه واجناسه وطعمه ولونه فلا تسـل ، والعيش بالتقتير

مررت يوماً بباب فسمعت ولداً دون السادسة سناً يقول لامه بانكسار:

— امي؟ انا اليوم لا اريد ان آكل كثيراً سمعت ان اولاد فارس يونس ناموا بلا عشاء ، مساكين فقراء امي . . اصحيح اننا سنجوع ونموت ؟ من

هذا جمال باشا الملعون الذي حط الحجز ؟ من اين تجلبين المصاري ياامي . لماذا لا يرسل لنا ابي مصاري ؟ الارز غالي والسكر غالي والكبريت غالي ، اهذا لاي شيء الحرب ؟ انا لا احب الحرب ، أعن جد يصير صلح و يرخص الارز والسكر والخبز وترتاح الدنيا ؟ اذا لم يكن عندنا زيت الضوء وسكر لاباس لكن كيف تقدر ان نعيش بدون خبز ؟

سمعت كلام الابن ولم اسمع جواب الام عليها وسرت في طريقي

الروح الملائكية ، روح الولد الصغير الطفل تقريباً — الطاهرة التي لم تدنس بفساد الشهوات تكره الحرب وتبتهج بالسلم وتلعن جمال باشا الظالم

واشغل افكاري هذان الابن والام طول ذلك النهار ومازالت ولن ازال اتمثلهما بالم

اين الشعراء والمصورون وعلماء النفس ليمثلوا لنا هذه الحقيقة الظاهرة ، ليوضحوا لنا شعائر تلك الام وذلك الابن . هل لمصور او شاعر او بسيخولوجي . خبير ان يصور حالة تلك النفس الخائفة التاعسة في ذلك الجسم الضعيف وقلب تلك الام المهددة بالموت وفوقه بانتزاع الابن عزائها وسلواها واعظم واثمن ماتقدر ان تحب وتتمثل من العوالم والكائنات

تعاسة يهون فيها الموت

الولد الصغير ، — النفس الكبيرة في ذلك الجسم الصغير الضيق مزيدة الحياة ، طالبة التمدد والسعة والرخاء — الولد الذي لم يدرك معنى للحياة والذى لم دنس روحه الطاهرة بمفاسد الحياة ولا ملأت قلبه روح المطامع الشريرة ضاق به العيش ، اسودت نفسه النيرة تلبدت عليه الهموم . اظلم داخله تعست حياته احاطت به المخاوف وكسر قلبه اذ نوزع الافراح والملاذ ونعيم الحياة . التي هي جميعاً — بعرفه المآكل والمشرب

وان سلم هذا الولد فاي رجل يكون منه ؟

ام ضعيفة حنون جداً احاط بها الويل — الفقر والحاجة — انتاب قلبها الخوف، ان قبلت الموت بشرف من يعول الولد

الام متمثلة الموت اعظم تعاسة والولد. اسمي غناً قد ترضى الموت لذاتها لكنها لاترضى ان يأكل الموت غناها الاسمي

ان قلبها الحنون لايسمح ان يصاب ابنها بهذه التعاسة العظمى

ان حب الولد قد ينسي الام الطهارة والعفة والشرف حتى الذات ايضاً

هذه الام ، ان ضاقت ذرعاً وعدمت الحيلة فأي امرأة طاهرة صادقة يكون منها ؟ وبأي شرف وعفة واخلاص تطالبها البشرية التي هي اصل شقائها ومبعث تعاستها

ام تاعس وولد مسكين جارت عليهما الحال ، ظلما والظالم الانسان ، وقفا على مفرق من الطرق الى عذاب وموت مر اوالى حياة بعار الام وذل للابن الحياة غالية

دمعة واحده من تلك المقلة التي لم تدنس بنظرة شهوانية تكفي لان تغسل عار الام وتمحو ذل الابن

...

كان الشتاء وابيضت اعالي لبنان بياضها المعروف الا انه لم يكن في هذه المرة تاج ملك او اكليل فخر وانتصار بل الشيب في رأس شاب ازهقته الاكدار وشيبته الاهوال قبل الاوان

المستدين يكافئة رطل الدقيق مئة قرش

الناس تبيع املاكها وبيوتها وحلاها واثاثها باثمان لاتذكر

كل مايشتريه الجائع المحتاج غال ونادر الوجود وكل مايبيعه رخيص وقليل القيمة وكثير الوجود

الناس تأكل لتلهي المعدة وليس لتجدد قوة

بانت فعلة الجوع ظاهراً باصفرار الوجوه وكشح البطون ونحول الاجسام وخوار القوى

من ممثل حالة ذلك الهزيل الواقف على الابواب يلتقط القشور المنبوذة عديمة القوت تقريباً ويلتهمها بلهفة

الناظر الى ذلك الجسم — المأكول البارزة وجنتاه وفكه الاسفل . والغائرة عيناه الحادة نظراتها والمطبق خداه واسترسل شعره الجاف والذي لم تعد شفتاه قادرة ان تتكلم بضبط والبادية اسنانه البيضاء جافاً قاتماً لونه — يهوله هذا المنظر الوحشي ويسترقه ان كان ذا شعور بشري وضمير حي

مشهد وحشي يخيف وضعف قريب من الموت يستحن ، هاتان الصورتان اجتمعتا في ذلك الجسم النصف حي تقريباً

آخ ! يؤلمني جداً ان ترد صورتي هنا ناقصة وان اكون عاجزاً من تصوير حقيقة حال الجائع بشكل يؤثر على ناظره كما يجب وكما تدعو الغاية

مواعيد الحكومة الخلابة وانشاء مداخر في انحاء لبنان لم يكن سوى تطمينات كاذبة لتسكين خواطر الشعب المسكين وموارد حياة لبعض المتنفذين قادة الشعب السائرين به الى الهاوية غشاً وخداعاً

وكانما نفخت الروح التركية الظالمة في نفوس الشيوخ والحكام ابناء لبنان فكانوا قساة وكانوا ظلمة

فتفرق الناس وتشتتوا

وجاء الربيع ولم يكن في جميل خضرته و بديع ازهاره مايستلفت نظراً او يجتذب قلباً

وكانت المهاجرات والنفي والشنق والجوع والموت وجاءت الامراض المعدية الفتاكة

يقال افتخاراً : ربيع الشام

اي ان الشام اجمل ماتكون في الربيع وابهى مايكون الربيع فيها

هربت من لبنان الى الشام وماذا رأيت ؟

سروراً ؟ افراحاً ؟ جناناً زاهرة وربوعاً زاهية ؟

مظالم قاهرة · سحابة سوداء في سماء الفيحاء · نار محرقة · غضب ونقمة ، جمال باشا يعم الويل

واين للملاك الانس ان يقيم ان صال شيطان الشر

· غلاء شديد وجوع مميت · القوي يأكل الضعيف · الوجوه تنفى ، الشبان تساق كالاغنام للذبح ، النساء يستباح عرضهن والمشانق منصوبة في ساحات جلق تأديباً وانتقاماً

وشنق السبعة الرفاق في ذلك الحين

وكانما اخجل جمال باشا الظالم ان يروي النهار فظاعة ظلمه فاختار الليل الدامس ستراً لفعلته الشنعاء وساق الابرياء الى الموت جاهلاً ان من وراء ظلام الليل الدامس ومن وراء الحيطان ومن وراء حدود البلاد ومن وراء البحار وهذا العالم وفي غيبوبة النوم ، عيوناً ترقب حركاته وايدي تصور مآثمه جلياً وتكتب له ايه المستقبل المنتقم للبري

رأيت الجثث معلقة وكانت الايام سوداً فتمثلت وراء هذا القتام حياة

جديدة لامعة وسكت

تلك الجثث الباردة المكمدة ، هياكل تلك النفوس النيرة التي طارت الى العلاء ابقاها جمال باشا الطاغية عبره للقوم على ماروى يبد انها لم تكن في الحقيقة الا اقباساً رفعت الى اعلى اتري اكثر وتمثل للعالم فظائع الظالم وجهل اهل السلطات وتروي للامة العربية حقيقة حال الروح التركية وتجيش خاطر الشعب العربي فهي في برودتها وجمودها وفقدانها كل قوة حياة كانت — بعدم صوت — تنادي عالياً الانتقام الانتقام، الى الحياة الى الحياة

تمثل شباناً في مقتبل العمر تعانقهم المشنقة

الايدي الناعمة ، الروح الملائكية الموحية اية للطف والكمال ، ذراعا الحبيب منتظر هؤلاء الشبان ايعانقهم ويتحد بهم في سبيل الخير العام ، كل هذا استبدل بالمشنقة

والمشنقة بدورها لم ترض عما فعل الترك فاثارت الخواطر وايقظت المروءة العربية ونهضت بالعرب لاستعادة الدرة المسلوبة وتحكيم الروح العربية العادلة فالمشنقة سلم الرقي

مثلثة القوائم كانت منبزاً غير ملحوظ ، والسكوت العميق عظة بليغة ، والموت ظلاً دفعاً للروح الواقفة لتجري في سبيل العدل

. . . . .

مملوا ذلك الجندي القادم من الاناضول ذاهباً الى الصحراء هل كان يشعر داخلياً بحب واخلاص لامه العثمانية التي هو من لحمها ودمها وعظمها ام هل كان يلاقي منها وهو في احرج مواقف الجهاد لاجلها مايبرهن له انها تحبه كام فيشعر قلبياً بالممنونية ويندفع بنفسه مسروراً الى تيار الموت الجارف فيفدي ويضحية عنها

سلوه لماذا فر من جنو بي سور يا قاصداً اباعد الاناضول جريا على القدم معرضاً بنفسه لاخطار اشد هولاً من الحرب

سلوه الصدق لماذا كان ولا يزال يصرح بان دولة العدو احق بان تملك في الارض

سلوا جمال باشا نفسه هل كان على ثقة من نفسه ومن اقرانه المسلطين وابناء جنسه انهم ساروا الى الحرب لمجرد خدمة دولتهم القومية بنزاهة واخلاص و بقصد التضحية لمنفعتها لا غير

المخلص للامة لا يأكل مالها و يهرق دماء رجالها هدراً و يضع فيها التفريق

الفدائي لا يأكل تعيين الجندي



٩

سيد عظيم على كرسي مجده وفي ابهى عزه لا يرق ولا يرحم ، حاقد عابس يأمر وينهى كانما بيده زمام الاحوال او سلطان الكائنات ، جمال باشا طاغية سوريا

يميت ويحيي وبكلمة منه تتحرك الالوف والوف الالوف

انف الملاذ، سئم المآكل والمشرب والناس حوله جياع تموت ، مل السمير والنديم وذوات الحسن والدلال

محاط بالآثام ، مكتنف بالادناس ، معتز على الوجود

عجبا ؟ يفتخر بمظالمه ومآثمه ام يعتز بادناسه ومفاسده؟

المال والعرض والدم تقدمة لجمال باشا ؟ المال والعرض والدم فدى عنه وضحية له ؟ وكل ذلك قليل في عينيه فلا يسترضيه ولا يحل عقدة عبوسته كانما للبشرية عنده اثم لا يمحى او ذنب لا يغتفر

اولائك الذين جنت عليهم الايدي الاثيمة ، الذين قتلتهم المظالم واماتهم جمال باشا شنقا وقتلا وجوعا بحجة الخيانة وبحق السلطان والاخلاص مفتخرا عليهم من يثبت لي ومن يقدر ان يقول بان جمال باشا كان اعظم منهم في الحقيقة ومن يعاوض ان قلت ان كلا من اولائك كان اصدق من جمال باشا واسلم نية واخلص وطنية وابي شعورا وانقى ضميرا ، وقد يكون اولهم احطهم رتبة في نظر العالم ، ذاك الذي كان يطرد من باب الى باب ويهان ويلعن ويذل ، وكان يدور هزيلا ضعيفا جائعا منكسرا مضعضع الفكر خائر العزم

من القاتل ؟ من الجاني ؟ من الخائن وعديم الضمير والشرف اليس ذاك الذي اجاع الناس وشتت الاقوام وكشف الاعراض وطغى ففرق المملكة

واسرف وتبذخ وانعم ؟ مودي النفوس البرية وسافك الدماء الزكية ، اكل مال الايتام والارامل ومستحل المال الحلال لاكثار مال الظلم عدو الاسلام ومعارض اقوال سيد الامم النصرانية ؟

....

الى هذا الربيع فقط من سنين الحرب قدرت ان تثبت في لبنان عادة المأتم والدفن باحتفاء واكرام

ولم يكتف بابطال هذه العادة فقط بل ابطلت المدافن العمومية وصار يدفن الميت في اقرب مواقع الموت وافتقر لمن يدفن الجثة او ينقلها حتى بالاجرة و كثير من الجثث لم يدفن في اوانه لخوف الناس من العدوى وقلة العاملين و كثرة الموت كما وان كثيرين لم يدفنوا اصلا

وتعاظم الخطب اكثر في هذا الصيف

الذي جاع في الشتاء اقتات في الربيع بالاعشاب والذي اكل العشب في الربيع تعدلت اليوم صحته وامتلا جسمه اي انتفخ وتورمت ساقاه ووجهه فبان غليظا ناصحا وهو في الحقيقة معتل يودع الحياة

وماتت الناس في البيوت والازقة والشوارع والطرق والبراري حتى انك كيفما اتجهت كنت ترى جوعاً وموتاً وظلما وانتهاكا للحرمة بلا خوف ولا خجل

ومن المعجب المبكي ان اللبناني علي الهمة عزيز الجانب اضاع في هذه الايام كل عزة نفس وعاطفة شرف

ما هذا الصبر وطول الاناة ؟ يهان ويشتم ويطرد فلا يبالي ويعمل اعمالا تدل على تضعضع فكري ويقعد على الذل راضياً ان يملا بطنه مجرداً من جميع

صفاته الاولة اللبنانية العزيزة

الجوع يضعضع الفكر ويعمي البصيرة ام هي محبة الحياة ترخص الشرف وتستبيح العزة ؟

من يستعيد للبنان شرفه ، من يسترد للبناني همته وعزته واباءه ومن يمحو العار؟

وهنذا اشهد وشهادتي حق : ان الكبير قام على الصغير والقوي حاول أكل الضعيف بكل ما لديه من القوة دون ما رحمة اوشفقة او حنان

مال الصغير الضعيف - حلال الجائع الكبير يستحله القوي الغني المملوء بطنه غير سامع صوت ضمير وقد يكون غير مو بخ بضمير فهو متقلد جمال باشا

قد يكون أن الذين تحملوا الضيق واجتازوا نار الشدة المطهرة كان لهم مما تحملوه من العذاب والالام ما قدموه ثمناوافيا لاستعادة الشرف المفقود وغسل عار المسكنة والذل ولكن ما الذي يمحو عار اولائك الذين جاروا على الفقير وكان كل منهم جمال باشا الخفي

ضعوا هذه الصورة امامكم تجاه العيون في كل آن وموضع ليفهم الظالم نفسه ويدرك الفقير المظلوم موقفه وحقيقة حاله وواجباته اوعلها تحرك قلب الظالم وتستعيد اليه عاطفة تدفعه للتكفير فيستعيد هو شرفه وتنال الانسانية غايتها منه في جريها نحو الكمال

....

يقولون افتخاراً صيف لبنان اي اجمل ما يكون لبنان في الصيف وابهج ما يكون الصيف فيه وكيف كان لبنان في هذا الصيف ؟

مسرح الهموم ، مقر الويل ، مشهد الاهوال ، وادي الموت ، متطايرة

متكاثفة متلبدث في هوائه جراثيم الامراض القتالة كسحائب الجراد في العام الماضي الاان تلك نظرت بالعين المجردة وهذه لم تنظر وتلك افة النبات وهذه آفة الانسان .

صيف لبنان في هذا العام كان اصعب من شتائه في اطلى قدم صنين والى هذا الصيف امتدت اضررا الجراد فلم يكن خصب في لبنان

مظالم وعدم خصب وامراض فتاكة واضطهادات وقلة وجوع ، كل ذلك تجمع وانهال صواعق على راس وقلب اللبناني المسكين فمات في حسرته

تعاسة عظمى تظلل لبنان

المأساة فوق التصور

رائحة كريهة منبثة في الهواء من الجثث البشرية التي لم تدفن

كم بيوت وقرى خلت من ساكن وصارت خرابا

وياللهول، صدرت الاوامر بجمع الاموال الاميرية

تعال انظر ما كان من امر الحكومة مع الشعب

شعرت الحكومة في نفسها باستظهارها في الشعب فزادها ذلك عظمة وتصلبا حتى انها اصبحت تعد القساوة من بعض صفات الكمال في علاقاتها مع الشعب

لم تمهل الشعب ليدبر امره في دفع الاموال الاميرية كما كانت تفعل قبلا من تأخر سيق بالعصا ولم يسمع له رجاء

ياساكني العلا اطلوا على هذا الشعب التاعس المسكين . وياسماء غوثا منك له فما في الارض رؤوف . ويامهاجري لبنان بعيداً عنه طيروا على الرياح واشرفوا عليه من علان كان لايمكنكم الهبوط اليه من شرفيه او ان كنتم

تخافون ان يلحقكم نصيب من بلائه

هنا حيث ابرزتكم الطبيعة تعاسة عظمى لا يمكن ان يتصورها العقل اوان تصورها بيد ٠٠ انظراو من احببتم اكثر من جميع العالم ، آباءكم واخوتكم كباراً وصغاراً ذكوراً واناثاً مكسوري الاجنحه عديمي الحيلة، ينتزعون اخر امل ، يطالبون بما ليس في يدهم وليس في الامكان الحصول عليه ، يساقون بالعصي والسباب والاهانة من اجل الضرائب والاموال الاميرية

الجائع الضعيف الذي ليس له ما يقيه الموت جوعا يساق بالعصا ويضرب ويهان ويرذل ويطالب بدفع الاموال الاميرية

الضعيف الجائع ، كسير القلب ضيق العيش ، اليائس في الحياة الواقف على شفار الموت والشاهد الموت جسما ينازعه الحياة والمرتجفة اعضاوه هولا ورعباً ، طالب النجدة والمعونة ، المستغيث بالسماء والارض وعالم الظاهر والغيب ، هذا يضرب و يسب من اجل الاموال الاميرية

واسمع ماذا يقال له واضحك : انا لا اذهب من اجلك الى العرفي

وكانما تسمم الشيوخ والاولياء اللبنانيون محتداً بالروح التركية الشريرة الظالمة فكانوا في جميع حياتهم و كل اوقاتهم آلة تنفيذ ظالمة متممة بسرعة وضبط وانكر القريب قريبه الا فيما فيه حق ارث او باب انتفاع ذاتي



٥

واستفحل الحطب في الشتاء وضاقت الدنيا والحياة واشتد الخراب

لبنان الذي كان عامراً زاهراً في الامس اصبح اليوم خراباً فهو بابل الجديدة

قف بين الخرائب وعلى القبور تنس انك في لبنان ولا تحسب نفسك الا ناظراً حلماً او في سحر او بحاثة عظيماً رماك الحظ الى خرائب تركتها القرون الخوالي

وشعرت النساء بعظم البلية كالرجال وادركن عجز الرجال في عملهم ضد هذا التيار الشديد فرمين بانفسهن في هذا الخضم المتلاطمة امواجه وسرن في العمل مع الرجال جنباً الى جنب فكان لكثيرمنهن تأثيرعظيم في وقي وحفظ حياة عائلات كثيرة

بلى ! كانت النساء من هذا عرضة للضلال وتورط كثيرات منهن في حمأة الفساد غير ان ذات الشيء الذي كان منه التعرض للضلال والذي كان به ثلم طهارة كثيرات : كان منه وقي طهارة كثيرات وحياة كثيرين

ومها يقال عن حياة المرأة اللبنانية في ايام هذه الحرب فان هنالك عذراً يبرر ويمحو العار ان كان مايلوث طهارتها

ليعذرن العالم المرأة اللبنانية فان لها عذراً صوابياً وكفارة هي الدموع التي اذرفتها والالام الداخلية التي عانتها ، قبل وبعد وفي غضون ذلك العمل الذي اقدمت عليه مرغمة بدون شك

تمثل فتاة في مقتبل العمر وثورة الشباب ضاقت بها الحال وتركها العالم فلم تجد مسعفاً . تعرضت للجوع ونوزعت الحياة ، وقفت مهددة بالموت جوعاً ولم

تنجح مساعيها المقدسة في سبيل الحياة ثم جاءها شاب متقد حياة حاملاً الذهب عَلَى كفه ودار حولها والقى اليها نظراته الحادة

نظرت الفتاة هذا الشاب وشعرت داخليا بما لم تفهمه او لم ترد ان تفهمه او ان تعيره فكراً او ان تدعه يصيب منها حظاً فحولت جانباً وغطت عينيها بكفيها وادمعت

عاودها الشاب تدانى منها مؤنساً وملاطفاً والقى عليها آياته الساحرة ثم قال لها : هذا الذهب يقيك من الموت جوعاً

سمعت الفتاة هذا فرفعت رأسها وفتحت عينيها لتعلم ما الخبر

فتاة في ثورة الشباب خاضعـة لنواميس الطبيعة الغرارة تعلم الطهارة والاخلاص ولا تدرك مقدار قيمتها والضحية التي توازيهما — وقليل في الارض جداً من يعرف هذا واقل منه كثيراً من يعرف و يعمل — وسوس لها شيطان اللذه الشهوانية وحب الحياة

التي تركها العالم والتي ظلمها الانسان حتى الموت جوعاً جاءها من تشتهي بواسطة نجاة من الملاك المرعب والموت جوعاً

وقفت حيرى تنازعها الافكار تتراوح بين تيارين . تلفتت حولها كأنَّ هذا الوجود بناظريها علها تجد مخبراً بما يجب ان تفعل او مخجلاً تستحي قدامه فلم تجد الا عالما اصم قاطعها . وعيونا محولة عنها ووجوها معرضة وجل ماتمثل لها كان يقول لها افعلي . تراءى لها شيطان الموت المرعب وتمثل لها نعيم الحياة وفردوس اللذات فتضعضعت ولم تشعر بصوت الضمير ولم تكن تدرك حقيقة مقدار ثمن الطهارة فتناولت الذهب وشربت الكاس

البشرية ظلمتها . البشرية اوقعتها . فلمن حق عليها وهي المظلومة وحق

من اعطى ان يطالب وحق السالب ان يرد

انظر تلك المرأة السائرة صعداً على تلك الاكمة تتوكا على ابنها ويتوكا ابنها عليها وكلاهما ضعيف هزيل

هاهي جلست في ظل تلك الصخرة العالية بجانب الطريق والناس تمر من امامها حاملة على روءسها وظهورها واكتافها مثقلة بالتعب فتنظر اليها بعدم اكتراث مواصلة سيرها

هذا الولد فلذة كبدها ونور عينيها ومشعال حياتها جالس الى جانبها يتلفت بذعر متألما من التعب والجوع تتوارد الافكار بكثرة على عقله فتزيده حسرة . غيوم التعاسة قد غشيت عينيه وقلبه وعقله

اقرأ آية الجهد والنصب حول عينيه وتمثل الانكسار في جفنيه والكآبة والحزن على خديه وانصت لدقات قلبك وصوت ضميرك ان كنت انساناً ذا ضمير . وجرب أن كنت تقدر ان توقف دمعة الحزن المتلجلجة في عينيك اما اذا كنت جمال باشا فقلبك متصلب وعينك قريره

هذه الام بعد مافرغت يدها وعدمت الحيلة اقفلت بيتها الفارغ من الانية والامتعة والاثاث التي بيعت سداً لهوة الجوع

خرجت من بيتها بالرغم عنها وكل مافيها من قوة الارادة والميل وضمت الى دمعة الحزن واليأس دمعة وداع مر ، تلك اية فراق اليم ومشت الى حيث يرميها النصيب فاما الى باب رزق مفتوح ، يوصلها الى جنة أمن وسلام او الى باب موجود ينتهي عنده كيانها وتلفظ اخر انفاس حياتها

وهاهي احتضرت الان في ظل هذه الصخرة العالية

صرخت بابنها : اعني ، امسك ظهري ، نجني من الموت ، ياذلك يا ابني

تمثل موقف هذين الحيين

ام ضعيفة جاءها الموت وقد يدفع عنها بجرعة ماء و كسرة خبز وانى لها ذلك طلبت المعونة من ابنها الذي تعهده وتعرفه محتاجاً نظيرها عديم القوة وما ذلك الالان العالم اجمع لم يرد ان يساعدها او لان اهل القوة هم الذين قربوا اجلها واوصلوها الى هذه الحالة فاستغاثت بالضعف ليقويها

الولد الصغير عديم القوة والحيلة وضعيف الذات تناديه امه وتلتمس معونته تلك الام التي لم يؤاسه في العالم الاها ولم يكن يبرد من برحائه الا عطفها، وحنوها فماذا يعمل ؟

ذعر ، حار ، ماذا يفعل تلفت يمينا و يسرة عله يجد مسعفا او مخبراً يقول له افعل كذا ، ترجى الهاماً من الغيب وقوة من الملاء ترشده ، تقوية وتسعفه لانقاذ من عليها الاعتماد ، عزائه الوحيد في هذه التعاسة ، والتي احبها اكثر من كل مافي الوجود فلم يجد من مجير

ماتت الام وهاله ان يراها تموت

و كان مرأى الام تموت اثقل علَى قلب الولد من الجبل واثقل من تلك الصخرة العالية التي ماتت الام في ظلها

ماتت الام ولم تتحرك ثانية

ناداها الولد فلم تجب ولم تلتفت ولم تتحرك فتحقق عندئذ انها ماتت وشعر انه اضاع بموتها شيئا اعز عليه واغلى من جميع هذا العالم وكل مايحيط به من اشياء الكون ، اضاع قلبا حنونا وزوحا فصل عنها كانت اقرب اليه وافضل بحسب شعوره من جميع الكائنات

فهم عندئذ انه قوطع من كل مافي الوجود وتمثل انه لم يبق بعد امه الا

الموت الذي يكرهه فقام على كرهه الموت ينادي الموت و يستسرعه

جلس يبكي و يئن بتفجع و يلطم بمرارة ثم يحدق بنظره الى امه مفكراً فيما وصلا اليه ، و كيف انها قاطعته مثلما قاطعه جميع العالم وتصلب قلبها الان مثلما تصلب قلب العالم وقلب جمال باشا سبب هذه التعاسة ومثلما تصلبت تلك الصخرة التي ظللتهما الا انه كان يعذر امه ــ يعذرها لا غيرــ لعلمه انها ماتت

فكر فيما يجب ان يفعل ، رأى من الواجب ان تدفن امه كي لا تاكلها الوحوش واني ذلك

هو لا يقدر ، سال كثيرين ممن عبروا الطريق ، التمس من كثيرين وخجل ان يسال كثيرين فلم يجد قلباً يحن عليه بعد ذلك القلب الجامد الملتف في تلك الجثة الباردة فاقدة الحياة الذي يريدان يستودعه الارض عساها تكون امن من غيرها عليه او احق من الجميع به لكن ذلك لم يكن

ولد صغير ضعيف من الجوع . ضعيف من الهم . ضعيف من التعب . (وآخر الكل) طامن قلبه بحربة الحزن على امه فلم يقو على تحمل هذه الضربة الأخيرة ولم يعش طويلا بعد امه .

او كانما أنف الحياة بعد امه او ابى ان ينفصل عنها هي التي لم يجد في الحياة مقاسماً التعاسة الا هما او كانما عناية غير مدركة رثت له وشاءت ان تنتشله من هذا الوسط الظالم الفاسد وهذه التعاسة غير المحدودة فتضع حداً لتعاسته وهكذا كان .

سقط الولد بجانب امه ومات

ولم تدفن جثته كما لم تدفن جثة الام فكانا وهما الجائعان مأكلا لجائع الوحش والطير

***

ذلك الشاب الذي عرفته صحيح البنية بهي الطلعة متقد الذهن ، همامًا ، عزيز الجانب ، ينفعل لاقل كلمة تحقير وتنهضه اقل دعوة للمساعدة ، امعن في عينيه كيف غارت في وجهه وكيف اصبحت حادة جامدة نظراتها تدل على تضعضع عقلي وكآبة داخلية

انظر اليه كيف انحله الجوع واضعفه وقبحه وكسر نفسه

وقف بالابواب وسأل . سال في الطرقات والازقة والشوارع مادا يده مستعطيا

عانى الجوع والنصب وذل الانكسار واخيرا مات

مات في حسرته

سعى بشرف ولم ينجح ، وقبل العار ولم يسلم فمات شقيا

مات على الطريق ولم تدفن جثته ولم تدمع عليه عين

شاب مات على قارعة الطريق ! الم تفقد به الانسانية عضوا نشيطا ربما كانت في حاجة اليه في ميدان جهادها الحياة ؟ الا يولمها انها جنت عليه وبخلت عليه بان يواري التراب

لابد من يوم تندبه الانسانية فيه فتبكيه وترثيه

لابد من يوم لهداية الضالين

لابد من يوم تحاسب فيه النفس النفس

هذا الشاب تمثله حيا ، تمثله في بهاء حياته وفي ايام جوعه ومثل في عقلك مجرى الانقلاب الذي جازته هذه الذات الحية الشاعرة بين الحالتين ، وتصور لنفسك كم عاني هذا الكائن الحي في النزاع بين الحالتين واية تعاسة وشقاء قبر

كم تلبد على تلك الكتلة الصغيرة —القلب— من الاحزان ، كم تراكم في ذلك العقل بل الراس الصغير الضيق من الافكار المؤلمة المرهشة، كم تحمل ذلك الجسم الضعيف من المشاق وكم لقيت تلك النفس الحساسة من الضغط والاهانة التي لا تتفق مع الشباب

ويل للجاني !

استهل الربيع الثالث للحرب وكان بشير خصب واقبال فنال النفوس المكتنفة بظلمات اليأس والشقاء بعض الراحة وتنفست الصعداء كأنما ابرق وميض امل بقرب انحلال الازمة

واشتد الضيق في الربيع ولكن كان يعزي الناس امل الحصاد في الصيف المتقارب

وجاء الصيف وكان الحصاد ، وكم كان لمرأى حبة الحنطة المنتظرة بفروغ صبر من التأثير المريح على قلب اللبناني الجائع اليائس منتظر جناء هذه الحبة

في هذا الصيف وقف اللبناني التاعس اول مرة وقفة المستريح في ميدان التنازع المر والتفت الى ماضيه وما قد عبر فوجده ظالمة مرعبة مرجفة وادار وجهه الى الامام مستطلعاً آتيه خائفاً وعورة الطريق فاذا به في الخريف وداهمه الشتاء وعبست له السماء وصب عليه الجو مع برده وبرده وابل الحسرات وكانت الرعود كأنما زاجر منتهر او صوت من العلاء يهدده بالنار الآكلة وبالهول

فقر وبرد ، جوع وعري ومرض ، والانسان لا يعلم ماذا يجب ان يعمل أيبيع اخر قميص يملكه واخر ثوب — وهو خلق — عليه ليسد به جوعة فترة وجيزة من الزمان ثم يموت ، ام يتحمل وخز ابر الجوع عساه يهون بذلك على

نفسه شدة البرد ، ومن هو الانسان ؟

جلد جاف قائم على هيكل عظمي تكاد النسمات تطارحه الى الارض ، لاتقدر ان تفرس فيه مايا

وجدت في هذا الشتاء في الشام وشهدت في احد الايام مشهد تفريق الوثائق — للخبز —

ازدحم الناس رجالا ونساء كباراً وصغاراً حول موزعي الوثائق حتى لم يكن بالامكان انجاز العمل فصعد الموزعون على احد السطوح وصاروا يرمون الوثائق من عل لاصحابها

كنت ترى جنوداً كانها بلا حياة تطال الى فوق وايدي ترتفع الى العلاء وعيوناً تحملق في من على السطح ، وتسمع ضجيجاً ترتعد له الفرائص كانما القوم ارعبهم زلزال او فاجأهم صرع شديد او هم ينادون الرحمن ويستندون السماء وما احر تلك الدموع التي كانت تذرفها النساء والاولاد .

نجوم السماء ! كوني خبزاً وتناثري على القوم وياغيوم امطريهم المن فوت الحياة فالشعب يستحق الشفقة ، ويا جماد نفتت وكن دقيقاً فالحالة تفتت الجماد ويا قلب جمال باشا تجبروص بقطع الرؤوس من الاعناق فالام الحياة امر من آلام القتل والنزاع ويايوم العدم انت احلى من يوم الحياة هذه

يوم تطير فيه الرؤوس عن الاعناق خير من يوم تطير فيه الافكار على عاصفة المخاوف وتتلاعب بالنفوس انواء مرارة الحياة .

احياء تفضل الموت على الحياة وترضى ان تستعيض بتعاسة الموت عن سعادة الحياة لان ذاك يريحها ، تباً للجاني !

وجاء الربيع وكان اشد هولا وضيقاً حتى تجاوز ثمن رطل الدقيق الثلاث

مجيديات . الذي كان يستدين كان يكلفه رطل الدقيق الف قرش تقريباً

والذين خرجوا من هذا الربيع احياء عدوا ذلك اعجوبة سماوية او معجزة فوق الادراك ولم يخافوا الصيف لان هذا الفصل من السنة لم يكن كغيره بل كان ينعم من ثمار الارض واعشابها ما يكفيهم شر ايامه لكنهم كانوا يخافون شر الايام المقبلة حاسبين ان في الشتاء المقبل آخر حد الحياة لكل من ابرز لبنان من جنس بشر فاستسلموا للاحوال كمن القى سلاحه وسلم

وكانما اظلم اليأس المدلهم العقول او اسكر الناس وخدر الاعصاب سم البلاء المتعاظم او الفت الناس الخوف والموت فلم تعد تبالي لما يحدث حولها من مظاهر التعاسات المؤلمة وصارت التعاسة العظمى المشتملة مع فصول رواياتها الجهنمية المفجعة امراً عاديا مألوفا

واشتد اليأس في البشر فلم تعد تصدق ان في الدهر يوما للسلم يعود فيه وحداً للحرب تقف عنده ونهاية للشقاء ينحل عندها

وكان الصيف والحصاد وكان من جود الارض ما برد من حرى القلوب وساعد في ذلك قلة عدد الآكلين لان الموت ذهب بمعظم الشعب ناهيك عن ان اكثر الذين تبقوا احياء خرجوا متشردين في الولايات المجاورة طلبا للرزق

لكنما كانت الناس ترتجف جزعاً وتتمثل الموت نازلا والشتاء المقبل منتهى كيان انسال المردة

وبينما الناس من الحياة على اشد اليأس كانت للوجود عين خفية ترقبه ويد مدبرة تعمل سرًا لوضع حد لهذه المأساة العظمى

شاءت العناية غير المدركة ان تنهي رواية الكون الجهنمية فما انتهى الصيف حتى كانت النهاية وعيد الخلاص

ويا له من يوم بهيج سعيد ، يوم زأر الاسد البريطاني في ساحات جلق وخفق العلم العربي في سماء الفيحاء

. . .

ليت شعري ! اية حسنة للترك في تار يخهم تشفع بهم فيغضي عن مآثمهم ام اية فضيلة لجمال باشا تنسي العالم مظالمه ؟

أتصفح الانسانية عن ذنوب هؤلاء القوم الطغام وتسامح جمال باشا الطاغية ام تصغي لصوت الدم الزكي طالب الانتقام ؟



